ما يحتمله الضمير من المرجع في لغة العرب

«دراسة لأبرز الضمائر في
ضوء شواهد من القرآن والسنة»

الدكتور
علي علي لقم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين،

عد ،،

فهذا بحث فيما يحتمله الضمير من المرجع في لغة العرب في ضوء
واهد من القرآن والسنة للدكتور علي علي لقم - مدرس اللغويات في كلية
دراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة - وقف فيه الباحث على
جموعة من الضمائر التى لها أكثر من مرجع فى الكتاب والسنة، وجعل ذلك
ى مقدمة وتمهيد وثمانية مباحث وخاتمة .

وارتباط الباحث بالكتاب والسنة ليس جديداً عليه فهو مثل كل أزهري
ضعهما فى قلبه وعينيه ليجلي للناس ما فيهما من أحكام وتشريعات وأسرار
عجائب وبخاصة القرآن الكريم؛ ففيه الإعجاز بكل أضربة وأشكاله ولاسيما
لإيجاز ، ومن الإيجاز الضمائر ولها في القرآن منزلة لا تدانيها منزلة .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً» فقد قام
الضمير مقام خمس وعشرين كلمة لو أتي بها مظهرة كما قال السيوطي .

وقوله تعالى«فلولا إذا بلغت الحلقوم»، وقوله سبحانه «كلا إذا بلغت
التراقي» فلم يذكر المرجع في الآيتين لعدم الحاجة إليه - وهذا هو الإعجاز
بالأيجاز .

ومن دلائل الإعجاز أيضاً عود الضمير على لفظ المذكور دون معناه كما
فى قوله تعالى «وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ» .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما أنه قد يُثنّى الضمير ويعود على أحد المذكورين مثل قوله تعالى«مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ» وقد ذكر الباحث بعض الآيات التى يحتمل أن يكون للضمائر فيها أكثر من مرجع .

ومن ذلك قوله سبحانه «وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » فيحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى الصلاة أو الاستقامة أو الكعبة أو إلى إجابة الرسول - ﷺ - إلى غير ذلك .

ولقد أبان الباحث الاحتمالات الواردة فى المرجع فى سبع آيات وحديث شريف وبرزت في كل ذلك شخصيتُه من خلال المناقشات والترجيحات والتوجيهات فأخرج لنا بحثاً طيباً نافعاً نسأل الله أن ينفع به .

وأن يوفق الباحث ويسدد- على طريق الخير - خطاه .

أ.د/ صبحى عبد الحميد عبد الكريم

أستاذ اللغويات فى كلية اللغة العربية

بالقاهرة

وأمين سر اللجنة العلمية الدائمة

للغويات في جامعة الأزهر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا، وجعل اليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ، وخلق السمع والبصر والفؤاد وقال «كل أولئك كان عنه مسئولا »، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين أفصح الفصحاء وأبلغ البغاء .

وعلى آله وأصحابه الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان، وسلمت ضمائرهم من الأدران .

أمـــا بعـــد

فهذا بحث مختصر في بعض الضمائر التى لها أكثر من مرجع، وهو دراسة لأبرز الضمائر فى كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله - ﷺ-

ويتكون هذا البحث من مقدمة وتمهيد وثمانية مباحث وخاتمة .

بينت فى المقدمة خطة البحث، وفى التمهيد ذكرت نبذة موجزة عن الضمير وبعض قواعده .

* **وفي المبحث الأول :** بينت فيه مرجع الضمير في قوله - تعالى :

«وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ» ٤٥/ البقرة .

* **وفي المبحث الثاني :** بينت مرجع الضمير في قوله - تعالى :

«يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ» ١٣/ آل عمران .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

* **وفي المبحث الثالث**: بينت فيه مرجع الضمير في قوله تعالى :

«فأنزل الله سكينته عليه» ٤٠/ التوبة .

* **وفي المبحث الرابع**: بينت فيه مرجع الضمير في قوله تعالى :

«فأنساه الشيطان ذكر ربه» ٤٢/يوسف .

* **وفي المبحث الخامس**: بينت فيه مرجع الضمير في قوله سبحانه:

«فناداها من تحتها ألا تحزني » ٢٤/مريم .

* **وفي المبحث السادس**: بينت فيه مرجع الضمير فى قوله سبحانه:

«لا يمسه إلا المطهرون» ٧٩/الواقعة .

* **وفي المبحث السابع**: بينت فيه مرجع الضمير في قوله تعالى :

«وتعزروه وتوقروه وتسبحوه» ٩/ الفتح .

* **وفي المبحث الثامن**: وبينت فيه مرجع الضمير في حديث الصورة وهو :

«خلق الله آدم على صورته»

أما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها من خلال هذا البحث ثم ذيلت هذا البحث بفهارس عامة للمراجع والموضوعات .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التمهـــيد

الضمير[١]: بزنة «فَعِيل» من الضمور وهو الهزال .

والمضمر : بزنة «مُفْعَل» من الإضمار وهو الإخفاء والضمير وُضِع في الأصل للاختصار .

قال السيوطى[٢]:

(١)- الضمير أو المضمر: هو الموضوع لتعيين مسماه مشعرا بتكلمه، أو خطا به، أو غيبته، وينقسم الضمير إلى بارز ومستتر فالبارز ما له صورة في اللفظ، وينقسم البارز إلى متصل، وهو ما لا يفتتح به النطق، كياء «ابنى» وإلى منفصل وهو ما يبتدأ به نحو «أنا» وينقسم المتصل بحسب مواقع الإعراب ثلاثة أقسام، ما يختص بمحل الرفع، كتاء «قمت»، وما هو مشترك بين محلى النصب والجر كالياء في «أكرمني» و«مَرَّبِي» وما هو مشترك بين الثلاثة كـ (نـا) في قوله تعالى «ربنا إننا سمعنا» الآية ١٩٣ من سورة آل عمران .
وألفاظ الضمائر كلها مبنية لشبهها بالحرف في الموضع والجمود ، ويختص الاستتار بضمير الرفع، وهو إما مستتر وجوبا كالضمير في «قم»، وإما جوازاً كالضمير فى : زيد قام ، والمنفصل بحسب مواقع الإعراب قسمان الأول ما يختص بمحل الرفع كأنا وأنت وهو، والثاني ما يختص بمحل النصب كإياي ، ومتى تأتى اتصال الضمير لم يعدل إلى انفصاله ..
هذا إيجاز لأهم مسائل الضمير ، وانظر التسهيل ٢٢ - ٢٩ ، والأشموني ١ : ١٠٨ - ١٢٦ ، وضياء السالك ١ : ٩٧ - ١٢٦ .

(٢) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مفسر، محدث، فقيه، نحوى، أخذ العلم عن ستمائة نفس، وكان عفيفا، أبي النفس، متواضعاً، سمحا، ومن تصانيفه : الأتقان فى علوم القران، والجامع الصغير لأحاديث البشير النذير، وحسن المحاضرة، وهمع الهوامع، وتوفي سنة ٩١١هـ، وانظر: شذرات الذهب ٥٣/٨ ، وبدائع الزهور ٣٩٦/٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولهذا قام قوله : «أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيماً»[١] مقام خمس وعشرين كلمة لو أتى بها مظهرة »[٢] .

ولهذا لما كان الضمير المتصل أخصر من المنفصل ، فلا يجوز العدول عن المتصل إلا بعد تعذره ، نحو قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين»[٣] وقوله تعالى : «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» [٤].

ولابد لكل ضمير من مرجع، وهذا المرجع إما أن يكون ملفوظا به نحو: قوله تعالى «لقد أرسلنا نوحا إلى قومه»[٥] ، وقوله تعالى «لتنذر قوماً ما أنذر إباؤهم»[٦] ، وإما أن يكون متضمناً له، نحو قوله تعالى «اعدلوا هو أقرب للتقوى»[٧] ، فالضمير «هو» يعود إلى «العدل» المفهوم من الكلام السابق، وقوله تعالى : «وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه»[٨] أي «المقسوم» لدلالة القسمة عليه .

وإما أن يكون دالا عليه بالالتزام نحو قوله تعالى «إنا أنزلناه في ليلة القدر» ، لأن الإنزال يدل عليه التزاما .

---

(١) الآية ٣٥ من سورة الأحزاب .

(٢) وانظر الإتقان ٢ ٣٣٤ .

(٣) الآية ٥ من سورة الفاتحة .

(٤) الآية ٢٣ من سوره الإسراء .

(٥) الآية ٥٩ من سورة الأعراف .

(٦) الآية ٦ من سوره يس

(٧) الاية ٨ من سوره المائدة

(٨) الآية ٨ من سوره النساء .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد يتأخر الضمير لفظاً لا رتبة نحو قوله - تعالي - «فأوجس فى نفسه خيفة موسى»[١] وقوله -تعالى- «ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون»[٢].

وقد يتأخر لفظاً ورتبة ، كما فى ضمير الشأن والقصة ، نحو قوله تعالى : «قل هو الله أحد»[٣] وقوله تعالى «فإنها لا تعمى الأبصار»[٤] .

وقد يكون الضمير من الوضوح والظهور والبيان بحيث لا يحتاج إلى مرجع ، نحو قوله تعالى «فلولا إذا بلغت الحلقوم»[٥]، وقوله سبحانه «كلا إذا بلغت التراقى»[٦] .

ففاعل «بلغت » فى الآيتين ضمير مستتر يعود إلى الروح أو النفس وإن لم يجر لها ذكر قبل ذلك لدلالة «الحلقوم» و«التراقى» عليها .

ومن دلالة السياق عليه قوله تعالى «كل من عليها فان»[٧]أي الأرض .

وقد يعود الضمير على لفظ المذكور دون معناه، نحو قوله تعالى: «وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب»[٨] أى ولا ينقص من عمر مُعَمَّر آخر .

---

(١) الآية ٨ من سورة طه .

(٢) الآية ٧٨ من سورة القصص .

(٣) الآية ١ من سورة الصمد .

(٤) الآية ٤٦ من سورة الحج .

(٥) الآية ٨٣ من سورة الواقعة .

(٦) الآية ٢٦من سورة القيامة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد يعود على بعض ما تقدم نحو قوله تعالى: «وبعولتهن أحق بردهن»[١] بعد قوله تعالى: «والمطلقات»، فإنه خاص بالرجعيات والعائد عليه عام فيهن وفى غيرهن .

وقد يعود الضمير على المعنى نحو قوله تعالى: «فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك»[٢]، ولم يتقدم لفظ مثني يعود عليه .

قال الأخفش[٣]: لأن الكلالة تقع علي الواحد والاثنين والجمع[٤].

وقد يثنى الضمير ويعود علي أحد المذكورين نحو قوله -تعالى: «مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان»[٥]، واللؤلؤ والمرجان يخرجان من أحدهما .

- وقد يعود الضمير على ملابس ما هو له نحو قوله تعالى: «كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحها »[٦]، أي ضحى يومها، لا ضحى العشية نفسها . لأنه لا ضحى لها .

---

(١) الآية ٢٢٨ من سوره البقرة .

(٢) الآية ١٧٦ من سورة النساء .

(٣) هو ابو الحسن سعيد بن سعده، فارسى الأصل ، لزم سيبويه وأخذ عنه ، ومن مصنفاته : تفسير معانى القرآن والاشتقاق ، وتوفي سنة ٢١٥هـ، وانظر إنباه الرواة ٢ : ٣٦، والأعلام ٣:١ ١ ٢ ١

(٤) وانظر الإتقان ٢ ٣٣٦

(٥) الآية ١٩ - ٢٢ من سورة الرحمن .

(٦) الآية ٤٦ من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد يجئ الضمير متصلا بشئ وهو لغيره نحو قوله تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلنه نطفة فى قرار مكين»[١]، فالمراد بالإنسان آدم عليه السلام - والضمير في قوله «جعلناه» يعود إلى ولد آدم؛ لأن آدم لم يخلق من نطفة .

والأصل أن يعود الضمير على أقرب مذكور .

ولذا جاء المفعول الأول بعد المفعول الثاني فى قوله تعالى :«وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً »[٢].

فالضمير في «بعضهم» يعود على شياطين الإنس والجن .

هذا وقد اخترت بعض النماذج من القرآن الكريم والسنة المطهرة لما له أكثر من مرجع من الضمائر .

***** ***** *****

---

(١) الآية ١٢ ، ١٣ من سورة المومنون .

(٢) الآية ١١٢ من سورة الأنعام .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الأول

قال الله تعالى :

«واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين» ٤٥/البقرة .

الضمير فى قوله تعالى «وإنها» فى تفسيره سبعة أقوال :

الأول : أن يكون راجعا إلى الصلاة نص عليه مجاهد[١]، واختاره ابن جرير [٢] وهو الأرجح اتباعا للقاعدة العامة وهي أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور ، ولأن الصلاة أهم وأغلب .

قال أبو حيان [٣]:

«الضمير عائد على الصلاة هذا ظاهر الكلام وهو القاعدة فى علم العربية أن ضمير الغائب لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل»[٤] .

---

(١) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكى ، مولى بنى مخزوم ، تابعي مفسر من أهل مكة ، أخذ عن ابن عباس ، وتوفي سنة ١٠٤هـ ، وانظر الأعلام ٥ : ٢٧٨ .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، المؤرخ المفسر الإمام ، ولد بآمل طبرستان ، واستوطن بغداد وتوفى بها سنة ٣١٠ هـ ، وانظر تذكرة الحفاظ ٢:٣٥١، والأعلام ٦:٦٩ .

(٣) هو محمد بن يوسف أثير الدين صاحب البحر المحيط فى التفسير، والتذييل والتكميل فى شرح تسهيل ابن مالك، ولد فى الأندلس سنة ٦٥٤هـ ، ورحل إلى الشمرق ، فكان له شهرة واسعة ونتاح ضخم ، وتوفى سنة ٧٤٥هـ وانظر بغية الوعاة ١/٢٠٨ وشذرات الذهب ٦/١٤٥ .

(٤) وانظر البحر المحيط ١/١٨٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثاني: أن يكون عائداً على الاستعانة وهو المصدر المفهوم من قوله: «واستعينوا» فيكون مثل «اعدلوا هو أقرب للتقوى»[١] أى العدل أقرب قاله البجلي[٢].

الثالث: أن يكون عائداً على إجابة الرسول - ﷺ - ؛ لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليه ، قاله الأخفش .

الرابع: أن يكون عائداً على العبادة التى يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة .

الخامس: أن يعود إلي الكعبة ؛ لأن الأمر بالصلاة إليها .

السادس: أن يكون عائداً على جميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها من قوله تعالى «اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم»[٣] إلى قوله تعالى: «واستعينوا» .

السابع: أن يكون المعني على التثنية، واكتفي بعوده على أحدهما ، فكأنه قال: «وإنهما» ، أى الصبر والصلاة كقوله تعالى: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم»[٤]، وكقوله تعالى :« والله ورسوله أحق أن يرضوه »[٥].

---

(١) الآية ٨ من سورة المائدة .

(٢) هو صفوان بن يحى ، مولى بحيلة أبو محمد، من رجال الحديث عند الإمامية من أهل الكوفة، ومن مصنفاته : الفرائض ، والوصايا ، والآداب ، وتوفي سنة ٢١٠هـ، وانظر الأعلالم ٢٠٦/٣ .

(٣) الآية ٤٠ من سورة البقرة .

(٤) الآية ٣٤ من سورة التوبة .

(٥) الاية ٦٢ من سورة التوبة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثانى

قال الله تعالى :

«قد كان لكم ءاية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخ
كافرة يرونهم مثليهم رأي العين» ١٣/آل عمران .

الضمير في قوله «يرونهم» فيه احتملان :

الأول : أن يكون ضمير الرفع راجعا إلي الكفار ، وضمير النصب
راجع إلى المؤمنين .

والمعنى : أن الكفار يرون المؤمنين قدرهم مرتين .

ولا يعترض على ذلك بقوله تعالى : «ويقللكم في أعينهم»[1] ؛ لأن
هذا كان قبل بدء القتال عندما رأى الكفار المؤمنين قله فتجاسروا عليهم، ثم
أمدهم الله بالملائكة ، فرأوهم كثيرا فانهزموا .

الثاني : أن يكون ضمير الرفع راجعا إلى المؤمنين ، وضمير النصب
راجع إلى الكفار[2] .

والمعنى أن المؤمنين رأوهم قدرهم مرتين فقط ، وكانوا ثلاثة أمثالهم
وهذان الاحتمالان على قراءة من قرأ بالياء وهي قراءة غير نافع[3] .

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنفال .

(٢) وانظر حاشية الجمل ١ : ٢٤٧ .

(٣) قرأ نافع «ترونهم» بالتاء على أن الخطاب لليهود، وقرأ الباقون بالياء وانظر
السبعة لابن مجاهد ٢٠١، وحجة القراءات ١٥٤، ١٥٥، والنشر ٢:٢٣٨، والإتحاف
١: ٤٧٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والأول أولى : بدليل قوله تعالى :

« وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً »[١].

فهذه الآية تدل على أن المؤمنين يرون المشركين قلة عند التحام الصفوف .

وأما على قراءة نافع بالتاء فهناك أربعة أقوال :

الأول : أن يكون الضمير المرفوع في «ترونهم راجعا إلي المؤمنين، والضمير المنصوب راجع إلى الكافرين ، والضمير المجرور فى «مثليهم» راجع إلى الكافرين .

والمعنى : قد كان لكم أيها المؤمنون آية في فئتين بأن رأيتم الكفار مثلي أنفسهم في العدد .

الثاني : أن يكون الخطاب في ترونهم للمؤمنين أيضاً ، والضمير المنصوب فى «ترونهم» للكافرين ، والمجرور في مثليهم للمؤمنين .

والمعنى : قد كان لكم أيها المؤمنون آية في فئتين بأن ترون الكافرين مثلي عدد أنفسكم، وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ إذ كان حقه أن يقال ترونهم مثليكم .

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنفال .

(٢) هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم ، أحد القراء السبعة الأعلام ، كان ثقة صالحاً ، وتوفى سنة ١٦٩هـ وقيل سنة ١٧٠هـ، وانظر طبقات القراء ٢ : ٣٣٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثالث : أن يكون الخطاب في «لكم» وفي «ترونهم» الكفار قريش ، والضمير المنصوب للمؤمنين .

والمعنى : قد كان لكم أيها المشركون آية حيث ترون المؤمنين مثلي أنفسهم في العدد فيكون قد كثرهن فى أعين الكفار ، لتضعف قلوبهم فينهزموا .

الرابع : أن يكون الخطاب لليهود ، والضمير في «ترونهم» راجع إلى المشركين [١]

وهذا القول ذكره السهيلي [٢].

والمعنى : قد كان لكم أيها اليهود آية في أنكم ترون المشركين يوم بدر قدر المؤمنين مرتين [٣].

---

(١) جاء فى أسباب النزول للنيسابورى ٦٩ نقلا عن محمد بن إسحاق أن اليهود قالوا للنبى - ﷺ - بعد غزوة بدر : يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، أما الله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، فأنزل الله تعالى : «قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد» ١٢/آل عمران

(٢) هو أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله المعروف بالسهيلي نسبة إلى «سهيل» حصن بالأندلس، نشأ في بيت علم وخطابة، وبرع في العربية واللغات والأخبار ومن مصنفاته : الروض الأنف ، والأمالي ، ومات سنة ٥٨١هـ ، وانظر بغية الوعاة ٢/ ٨١ ، شذرات الذهب ٤/ ٢٧١ ، والأعلام ٣/ ٣١٣ .

(٣) وانظر الروض الأنف ٢/ ٢٩٦ ، وحاشية الجمل ١ : ٢٤٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا القول الأخير الذى ذكره السهيلي هو الأولى ؛ لأن السياق يدل عليه .

وقوله تعالى: «قد كان لكم آية» مرتبط بما قبله [١].

***** ***** *****

(١) فى السيرة النبوية ٣:٩ .
قال ابن إسحاق : فحدثنى مولى لآل زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير أو عن عكرمة، عن ابن عباس قال : ما نزل هؤلاء الآيات يعنى الآية ١٢ ، ١٣ من سورة آل عمران إلا فيهم - اليهود - .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثالث

قال الله تعالى :

«إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم» الآية ٤٠ من سورة التوبة .

اختلف في مرجع الضمير المجرور في قوله «فأنزل الله سكينته عليه» على ثلاثة أقوال

الأول : أن الضمير يعود إلى أبي بكر الصديق .

وهو قول ابن عباس، وعلي بن أبى طالب، وحبيب بن أبى ثابت[١] وأكثر المفسرين [٢]

قال أبو حبان [٣]:

«والظاهر أن الضمير فى «عليه» عائد على أبي بكر؛ لأن النبي - ﷺ - كان ثابت الجأش ، ولذا قال : لا تحزن إن الله معنا وأن الضمير فى

---

(١) هو حبيب بن أبي ثابت الكوفي فقيه الكوفه ومفتيها مع حماد بن أبي سليمان وقال في العبر هو أجل من حماد وأكبر ، فإنه روى عن ابن عباس وابن عمر وخلق من التابعين وتوفي سنة ١١٩هـ وقيل سنة ١٢٢هـ . وانظر شذات الذهب ١٥٦:١

(٢) وانظر أحكام القرآن ٢ ٩٥١، وزاد المسير ٣: ٤٤٠ ، ونظم الدرر ٣:٣٢١ .

(٣) وانظر البحر المحيط ٥ ٤٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«وأيده» عائد على الرسول - ﷺ - كما جاء «لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه»[١] يعنى الرسول «وتسبحوه» يعنى الله -تعالى.-

وقال الفخر الرازي [٢]: «الراجح أن الضمير في «عليه» يعود إلى أبي بكر الصديق لعدة أوجه: » .

الأول: أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات ، وأقرب المذكورات فى الآية هو أبو بكر .

الثانى: أن الحزن والخوف كان حاصلا لأبى بكر، لا للرسول - عليه الصلاة والسلام - فإنه - عليه السلام- كان آمنا ساكن القلب بما وعده الله أن ينصره على قريش .

أنه لو كان المراد إنزال السكينة علي الرسول لوجب أن يقال : إن الرسول كان قبل ذلك خائفاً ، ولو كان الأمر كذلك لما أمكنه أن يقول لأبي بكر «لا تحزن إن الله معنا» فمن كان خائفاً كيف يمكنه أن يزيل الخوف عن قلب غيره» .

قلت:

قد جمع الفخر الرازي بين الحزن والخوف، مع أن الآية لم تذكر سوى الحزن، فقال «لا تحزن»، ولم يقل: لا تخف ، لأن حزن الصديق على النبي - ﷺ - شغله عن خوفه علي نفسه، ولأنه رأى ما نزل برسول الله - ﷺ - من النصب ، وكونه فى ضيقة الغار مع فرقة الأهل ، ووحشة الغربة وكان

---

(١) الآية ٩ من سورة الفتح .

(٢) وانظر تفسيره ١٦:٥٣،٥٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أرق الناس على رسول الله - ﷺ - وأشفقهم عليه فحزن لذلك، و
الخوف فكان عنده من اليقين بوعد الله لنبيه ما يسكن خوفه (١).

الثاني: أن الضمير يعود إلى النبي - ﷺ - لأنه المحدث عن
وهو قول مقاتل(٢) والجمهور، واختاره ابن كثير(٣)، وقال: «هي سكي
متجددة خاصة بتلك الحال» (٤).

ورجح صاحب تفسير التحرير والتنوير(٥) هذا القول قائلاً:

«وليس يلزم أن يكون نزول السكينة عقب قوله: «لا تحزن إن الل
معنا» بل أن قوله ذلك هو من آثار سكينة الله التي أنزلت عليه، وتلك
السكينة مظهر من مظاهر نصر الله إياه فيكون تقدير الكلام: فقد نصره الل
فأنزل السكينة عليه وأيده بجنود حين أخرجه الذين كفروا، وحين كان في
الغار، وحين قال لصاحبه: «لا تحزن إن الله معنا» فتلك الظروف الثلاثة
متعلقة بالفعل «نصره» على الترتيب المتقدم، وعود الضمير إلى أبي بكر

(١) وانظر الروض الأنف ٢/٢٣٢.

(٢) هو أبو الحسن مقاتل بن بشبر البلخي من أعلام المفسرين، أصله من بلخ، وانتقل
إلى البصرة، ودخل وحدث بها، وتوفي بالبصرة، وكان متروك الحديث، ومن
كتبه: الرد علي القدرية، والناسخ والمنسوخ، وتوفى سنة ١٥٠ هـ، وانظر وفيات
الأعيان ٢:١١٢، والأعلام ٧:٢٨١.

(٣) هو أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي، الحافظ المؤرخ الفقيه،
ولد فى قرية من أعمال بصرى بالشام وانتقل إلى دمشق ومن كتبه: البداية
والنهاية، وتفسير القرآن الكريم، وغيرهما وتوفي سنة ٧٧٤هـ، وانظر شذرات
الذهب ٦:٢٣١، والأعلام ١:٣٢٠.

(٤) وانظر تفسير ابن كثير ٢/٣٥٨.

(٥) هو الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور جـ١٠: ٢٠٣، ٢٠٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ينشأ عنه تشتيت الضمائر ، وانفكاك الأسلوب بذكر حالة أبي بكر مع أن المقام لذكر ثبات النبى - ﷺ - .

الثالث : أن الضمير يعود إليهما معا ، والهاء هنا فى معنى التثنية والتقدير : فأنزل الله سكينته عليهما ، فاكتفى بإعادة الذكر على أحدهما من إعادته عليهما كقوله تعالى :

«يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين »[(١)] .

قلت :

ويؤيد هذا القول: أن الآية في مصحف حفصة[(٢)]: «فأنزل الله سكنته عليهما »[(٣)] .

هذا مجمل الأقوال في مرجع الضمير في هذه الآية .

وأرى أن الراجح من هذه الأقوال أن يعود الضمير إلى النبي - ﷺ -

ولا يلزم من ذلك أن يكون النبي - ﷺ - قبل ذلك خائفاً غير ساكن القلب، وقد ورد التصريح بنزول السكينة علي النبي - ﷺ - وذلك في موضعين في القرآن الكريم وهما :

---

(١) الآية ٦٢ من سورة التوبة .

(٢) هي حفصة بنت عمر بن الخطاب صحابيه جليلة صالحة من أزواج النبي - ﷺ - كانت عند خنيس بن حذافة السهيمي ، وتزوجها النبي - ﷺ - بعد وفاة زوجها وتوفيت بالمدينة سنة ٤٥ هـ ، وروى لها النحاري ومسلم في الصحيحين ستين حديثاً، وانظر الإصابة ٤:٢٧٣، والأعلام ٢:٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٣) وانظر الروض الأنف ٢/٢٣٢، والبحر المحيط ٥/٤٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأول : قوله تعالى :

«لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين» (١).

قوله - تعالى - :

«إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شئ عليماً» (٢).

فلا خلاف في هاتين الآيتين فى أن السكينة أنزلها الله على رسوله - ﷺ - .

ولم يقل أحدهنا إن النبي - ﷺ - كان خائفاً غير ساكن القلب ؛ لأنها سكينة متجددة خاصة بتلك الحال ، كما ذكر ابن كثير في آية سورة التوبة .

ويقوى ذلك قوله تعالى :

«يأيها الذين ءامَنوا ءامِنوا» (٣).

---

(١) الآية ٢٦ من سورة التوبة .

(٢) الاية ٢٦ من سورة الفتح .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهنا أمر الله - عز وجل - المؤمنين بالإيمان ، أي بالثبات عليه، أو بتجديده، أو بزيادته .

وعليه فلا يلزم من الأمر بالإيمان نفى الإيمان بالكلية .

وهكذا نرى أن آيات القرآن الكريم يفسر بعضها بعضاً، ويوضح بعضها بعضاً، وهذا قسم من أقسام التفسير بالمأثور .

***** ***** *****

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الرابع

قال الله تعالى :

«وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين» ٤٢/يوسف

الضمير في قوله تعالى : «فأنساه» ، وقوله «ربه» في تفسيرهما قولان :

الأول : أن يكون راجعاً إلى الذى ظن يوسف - عليه السلام - أنه ناج، وهو الساقي، والمراد بربه : سيده .

وهذا قول جماعة من المفسرين منهم مجاهد، ومحمد بن إسحاق .

قالوا : لأن صرف وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل الساقي حيث أنساه ذكر يوسف أولى من صرفها إلى يوسف .

الثاني : وهو قول أكثر المفسرين أن الضمير يعود إلى يوسف - عليه السلام - وهو قول ابن عباس ومجاهد - أيضاً - وعكرمة وغيرهم .

والمعنى : أن الشيطان أنسى يوسف - عليه السلام - ذكر ربه - عز وجل - حتى ابتغى الفرج من غيره، واستعان بمخلوق مثله، وتلك غفلة عرضت ليوسف - عليه السلام - ؛ فإن الاستعانة بالمخلوق في دفع الضر، وإن كانت جائزة إلا أنه لما كان مقام يوسف - عليه السلام - أعلى المقامات، ومرتبته أعلى المراتب ولا جرم أن صار يوسف - عليه السلام - مؤخذا بهذا القدر، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فإن قيل : كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه ؟

أجيب بأن يكون بشغل الخاطر وإلقاء الوسوسة [١].

ورد أبو حيان هذا القول بقوله :

«وقيل : إن الضمير في أنساه عائد على يوسف ورتبوا على ذلك أخباراً لا تليق نسبتها إلى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - » [٢].

قلت :

والقول الأول هو الراجح اتباعاً للقاعدة العامة، وهي أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور فى قوله :«اذكرنى عند ربك»، حيث إن الكاف تعود إلى الذى نجا - الساقي-.

ويقوي ذلك قوله تعالى :

«وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله» [٣].

ففى أحرج ساعات الشدة يلجأ يوسف - عليه السلام - إلى الله بقوله «معاذ الله» فلا يليق به إذن أن يوصف بأنه نسي ذكر الله .

---

(١) وانظر تفسير البغوي ٢:٤٢٨، وتفسيره ابن كثير ٢:٤٨٩، وحاشية الجمل ٢:٤٥٥ .

(٢) وانظر البحر المحيط ٥:٣١١ .

(٣) الآية ٢٣ من سورة يوسف .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقوله تعالى :

«كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين»[١]

فهو داخل في الاستثناء في قوله تعالى :

«قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين»[٢] ، وقوله تعالى :

«قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين» [٣].

قال صاحب التحرير والتنوير [٤]:

ولعل كلا الاحتمالين[٥] مراد، وهو من بديع الإيجار، وبذلك أن نسيان يوسف - عليه السلام - أن يسأل الله إلهام الملك تذكر شأنه كان من إلقاء الشيطان في أمنيته، وكان ذلك سببا إلهيا في نسيان الساقى تنكير الملك، وكان ذلك عتابا إلهيا ليوسف - عليه السلام- على اشتغاله بعون العباد دون استعانة ربه على خلاصه» .

***** ***** *****

(١) الآية ٢٤ من سورة يوسف .

(٢) الآية ٣٩ ، ٤٠ من سورة الحجر .

(٣) الآية ٨٢، ٨٣ من سورة ص .

(٤) ابن عاشور ٢:٢٧٩ .

(٥) وهما عود الضمير على الساقي، أو عوده على يوسف - عليه السلام -

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الخامس

قال الله تعالى :

«فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا» ٢٤/مريم

قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو بكر : «فناداها من تحتها» بفتح الميم والتاء .

وعلى هذه القراءة تكون «من» هى الفاعل .

واختلف في المنادي والحالة هذه، فقيل : عيسى عليه السلام- وقيل : جبريل - عليه السلام-

وقرأ الباقون «نافع وحمزه والكسائى وعاصم» بكسر الميم والتاء [(١)].

وعلى هذه القراءة يكون الفاعل ضميرا مستترا تقديره «هو» .

واختلف في مرجع هذا الضمير هل يعود إلى عيسى - عليه السلام - وأنه كلمها من تحت ثيابها ؛ لأن ذلك موضع ولادته .

وذهب قوم إلى أن الضمير يعود إلى جبريل - عليه السلام -

أي ناداها من دونها كما تقول : دارى تحت دارك، وبلدي تحت بلدك أي دونها .

---

(١) وانظر حجة القراءات ٢١٢، والنشر فى القراءات العشر ٢:٣٠٥، وزاد المسير ٥:٢٢١، وتفسير مشكل إعراب القرآن ١:٤٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الخامس

قال الله تعالى :

«فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا » ٢٤/مريم

قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو بكر : «فناداها من تحتها » بفتح الميم والتاء .

وعلى هذه القراءة تكون «من» هى الفاعل .

واختلف في المنادي والحالة هذه، فقيل : عيسى عليه السلام- وقيل : جبريل - عليه السلام-

وقرأ الباقون «نافع وحمزه والكسائى وعاصم» بكسر الميم والتاء [1].

وعلى هذه القراءة يكون الفاعل ضميرا مستترا تقديره «هو» .

واختلف في مرجع هذا الضمير هل يعود إلى عيسى - عليه السلام - وأنه كلمها من تحت ثيابها ؛ لأن ذلك موضع ولادته .

وذهب قوم إلى أن الضمير يعود إلى جبريل - عليه السلام - أي ناداها من دونها كما تقول : دارى تحت دارك، وبلدي تحت بلدك أي دونها .

---

(١) وانظر حجة القراءات ٢١٢، والنشر فى القراءات العشر ٢:٥٠٣، وزاد المسير ٥:٢٢١، وتفسير مشكل إعراب القرآن ١:٤٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الفراء [١]:

وقوله «فناداها مِنْ تحتها» و«ناداها مَنْ تحتها» وهو الملك في الوجهين جميعاً» .

قال مكي بن أبي طالب [٢]:

«وكون الضمير لـ«عيسى» أبين لها وأعظم في زوال الوحشة لتسكين نفسها» .

قال الشنقيطي [٣]:

«أظهر القولين عندي أن الذي ناداها هو ابنها عيسى، وتدل على ذلك قرينتان: الأولى أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه، وأقرب مذكور فى الآية هو عيسى - عليه السلام - لا جبريل - عليه السلام- لأن الله - تعالى - قال «فحملته» يعنى عيسى، «فانتبذت به» أى عيسى، ثم قال بعد :

فنادانهما فالذى يظهر ويتبادر من السياق أنه عيسى .

والقرينة الثانية : أنها لما جاءت به قومها تحمله، وقالوا لها ما قالوا أشارت إلى عيسى ليكلموه، كما قال - تعالى - «فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا» [٤].

---

(١) وانظر معاني القرآن ٢:١٦٥ .

(٢) وانظر الكشف عن وجوه القراءات ٢:٨٧ .

(٣) وانظر أضواء البيان ٣:٣٩٤ .

(٤) الآية ٢٩ من سورة مريم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإشارتها إليه ليكلموه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته .

وبهذه القرينة الثانية استدل سعيد بن جبير في إحدى الروايتين على أنه عيسى كما نقله عنه غير واحد .

***** ***** *****

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث السادس

قال الله - تعالى -:

«إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون» ٧٩/الواقعة

الضمير في قوله «لا يمسه» في تفسيره قولان :

أنه يعود إلى الكتاب المكنون، وهو اللوح المحفوظ .

وعليه فالمراد بـ«المطهرون» الملائكة ، أي لا يطلع عليه سواهم .

وهذا قول جمهور المفسرين، واختاره الإمام مالك [١].

فقال فى الموطأ [٢]:

«أحسن ما سمعت في هذه الآية «لا يمسه إلا المطهرون» أنها بمنزل
هذه الآية التى فى «عبس وتولى» قوله الله - تبارك وتعالى -:

«كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطه
بأيدى سفرة كرام برررة» [٣].

---

(١) هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الأصبح الحميرى ، إمام دار الهجرة، وأ
الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، ومولده ووفاته بالمدينة ، كان صلبا في دينه بعي
عن الأمراء والملوك ، وله الموطأ ، والرد على القدرية وتوفي سنة ١٧٩هـ وانظ
وفيات الأعيان ١:٤٣٩، والأعلام ٥:٢٥٨ .

(٢) وانظر الموطأ كتاب القرآن / باب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ١:١١٩ .

(٣) الآيات من ١١ إلى ١٥ من سورة عبس .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثـــانى: أن الضمير يعود إلى القرآن الكريم .

وعليه فالمراد بـ«المطهرون» من هو على طهارة من الناس [١].

قلـــت:

القاعدة العامة فى الضمير أنه يعود إلى أقرب مذكور، وسيراً على هذه القاعدة يكون الضمير فى «يمسه» عائداً إلى الكتاب المكنون وقد عرفنا أن الكتاب المكنون إما أن يكون المراد منه : اللوح المحفوظ ، وإما أن يكون المراد : المصاحف المصونة من التبديل .

***** ***** *****

(١) وانظر البحر ٨ : ٢١٤، وحاشية الجمل ٤:٢٨١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث السابع

قال الله تعالى :

«لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا»[١] ٩/الفتح .

اختلف فى تفسير الضمير في قوله «وتعزروه وتووقروه وتسبحوه» .

فقيل : إن الضمير المنصوب في الأفعال الثلاثة راجعة إلى الله - تعالى [٢]- والتعزير : النصرة، والتوقير : التعظيم .

ويؤيد هذا القول قوله تعالى : «ما لكم لا ترجون لله وقارا» [٣].

وقيل : إن الضمائر كلها راجعة إلى النبي - ﷺ - ، ومعنى «يسبحوه» أي ينزهوه عن كل وصمة من إخلاف الوعد بدخول مكة والطواف بالبيت الحرام ونحو ذلك [٤].

وقيل : إن الضمير في قوله «وتعزروه وتوقروه» راجعان إلى النبي - ﷺ - ، والضمير في «تسبحوه» راجع إلى الله - عز وجل -

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو «لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه» بالياء، فى الكلمات الأربع، على لفظ الغيبة ، لأن قوله «إنا أرسلناك» يدك علي أن ثم مرسل إليهم وهم غيب فأتى بالياء إخباراً للمرسل إليهم من المؤمنين ، فبعد مخاطبة النبي - ﷺ - بقوله «إنا أرسلناك» صرف الخطاب بعد ذلك للمؤمنين ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٨٠، وحجة القراءات ٦٧١ .

(٢) وانظر حاشية الجمل ٤: ١٦٠ .

(٣) الآية ١٣ من سورة نوح .

(٤) وانظر نظم الدرر ٧ : ١٩٣

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والقول الأول : هو الراجح لأن توحيد مرجع الضمير ، ومجيئها على وتيرة واحدة أولى من تفريقها .

وقوله «وتسبحوه بكرة وأصلا» صارف لهذين الضميرين السابقين إلى الله تعالى .

***** ***** *****

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثامن
حديث الصورة

روى الإمام أحمد ، والبخاري ومسلم وابن خزيمة فى كتاب التوحيد من حديث أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - «خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك وتحية ذريتك ..» الحديث

وقد اختلف فى مرجع الضمير فى قوله «على صورته» على ثلاثة أقوال :

الأول : أنه يعود إلى الله - عز وجل -

الثانى : أنه يعود إلى آدم - عليه السلام -

الثالث : أنه يعود إلى المضروب كما هو ظاهر من بعض الروايات.

هذا مجمل القول فى مرجع هذا الضمير وتفصيله كما يلي :

ذكر الحافظ ابن حجر[1] ثلاثة أقوال فى مرجع الضمير فى هذا الحديث:

القول الأول : وهو قول الأكثرية أنه يعود إلى المضروب؛ لما ورد في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال :

«إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على

(١) وانظر فتح الباري ١٦ : ٤١٧ / كتاب الأنبياء.

صورته»[١] وإلى هذا القول ذهب ابن خزيمة[٢] فقال :

الهاء فى هذا الموضوع كناية عن اسم المضروب والمشتوم، أراد - ﷺ - أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب الذى أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب .

قال الذهبي[٣] فى ترجمة ابن خزيمة :

«وقد تأول فى ذلك حديث الصورة فليعذر من تأول بعض الصفات وأما السلف فما خاضوا فى التأويل، بل آمنوا وكفوا وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، ولو أن كل من أخطأ فى اجتهاده - مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق أهدرناه وبدعناه لقل من يسلم من الأئمة معنا رحم الله الجميع بمنه وكرمه»[٤].

---

(١) وانظر صحيح مسلم/ كتاب البرو الصلة والآداب / باب النهى عن ضرب الوجه ١٦ : ١٦٥ .

(٢) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي أبو بكر ، إمام نيسابور فى عصره كان فقيها مجتهدا، عالما بالحديث، رحل إلى العراق والشام والجزيرة ومصر ولقبة السبكى بإمام الأئمة، وتزيد مصنفاته على مائة وأربعين مصنفاً ، ومنها: كتاب التوحيد وإثبات صفة الرب، وتوفي سنة ٣١١هـ ، وانظر طبقات السبكي ٢:١٣٠، والأعلام ٦:٢٩ .

(٣) هو محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي شمس الدين أبو عبد الله الحافظ المؤرخ المحقق التركماني الأصل، كان مولده ووفاته بدمشق ، ورحل إلى القاهرة وطاف كثيرا من البلدان، وكف بصره سنة ٧٤١ هـ ومن تصانيفه : سير أعلام النبلاء، وتذكرة الحفاظ ، وميزان الاعتدال فى نقد الرجال، وتوفي سنة ٧٤٨هـ وانظر الأعلام ٥:٣٢٦ .

(٤) وانظر سير أعلام النبلاء ١٤/٣٦٦ والتذكرة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القول الثاني: أن يعود الضمير إلى آدم - عليه السلام -

وذكر ابن حجر عدة تفسيرات لهذا القول فقال:

«أي خلقه على صورته التى استمر عليها إلى أن أهبط، وإلى أن مات، دفعا لتوهم من يظن أنه لما كان فى الجنة كان على صفة أخرى، أو ابتدأ خلقه كما وجد لم ينتقل فى النشأة كما ينتقل ولده من حالة.

وقيل: للرد على الدهرية أنه لم يكن إنسان إلا من نطفة، ولا تكون نطفة إنسان إلا من إنسان ولا أول لذلك فبين أنه خلق من أول الأمر على هذه الصورة.

وقيل: للرد على الطبائعيين الزاعمين أن الإنسان قد يكون من فعل الطبع وتأثيره.

وقيل: للرد على القدرية الزاعمين أن الإنسان يخلق فعل نفسه»(١).

وذهب إلى هذا القول بعض أهل العلم، وعد أيضاً من زلاتهم.

القول الثالث: أن الضمير يعود إلى الله - عز وجل -

قال ابن حجر:

وقيل: الضمير لله، وتمسك قائل ذلك بما ورد فى بعض طرقه «على صورة الرحمن»(٢).

---

(١) وانظر فتح الباري ٦/٤١٧/ كتاب ٦٠/ أحاديث الأنبياء.

(٢) هذا الحديث رواه عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل في كتاب السنة قال: حدثني أبو معمر حدثنا جرير عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن» ورجاله رجال الصحيح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمعنى : أن الله خلقه على صفته من العلم والحياة والسمع والبصر وغير ذلك، وإن صفات الله - تعالى - لا يشبهها شيء »[1].

وقد ذكر الإمام أحمد هذا القول فيما أملاه على بعض أصحابه من أقوال أهل السنة والجماعة .

وذكر الإمام الذهبي فى «الميزان» عن حمدان بن على الوراق أنه سمع أخمد وسأله رجل عن حديث «خلق آدم على صورته» على صورة آدم فقال أحمد : فأين يروى عن النبي - ﷺ -

«إن الله خلق آدم على صورة الرحمن» .

أحمد

وقد صحح هذا الحديث الإمام وإسحاق بن راهوية والذهبي وغيرهم من أئمة الحديث .

وأن وجهه كوجوههم .

ومن قال إن الضمير يعود إلى آدم - عليه السلام - يرد على ذلك بأنه لا فائدة في ذلك ؛ إذ ليس يشك أحد فى أن الله - تعالى - خالق كل شيء على صورته ، وأنه خلق الأنعام والسباع على صورتها .

ويرد على هذا التأويلات كلها بالرواية المشهورة :

«لا تقبحوا الوجه فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن»

وقد نص الإمام أحمد على صحة الحديث وإبطال هذه التأويلات .

*** ***** *****

(١) وانظر فتح الباري ٦ : ٤١٧ / ٦٠ / أحاديث الأنبياء .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد هذا العرض المختصر لأقوال أهل العلم فى مرجع الضمير فى هذا الحديث السالف الذكر أقول وبالله التوفيق :

اتباعا للقاعدة العامة السابقة وهى عود الضمير على أقرب مذكور فإن الضمير يعود إلى آدم - عليه السلام -

وأما رواية :

«إن الله خلق آدم على صورة الرحمن »

فقال الشيخ الألباني - حفظه الله -

إن الحديث بهذا اللفظ منكر فى نقدي أنا تبعاً لبعض أئمة الحديث ومنهم ابن خزيمة .

ورجح الشيخ الألباني أن يكون الضمير راجعاً إلى آدم - عليه السلام- وهذا مفهوم من اللفظ الآخر فى صحيح البخاري «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً» .

ولم يقل أحد إن طول الرحمن - سبحانه - ستون ذراعاً حتى أولئك الغلاة المشبهة .

وبين أن هذه الرواية السابقة تدل على بطلان الرواية الأخرى .

*****

*****

*****

(١) شريط رقم ٦٧٧ - سلسلة الدروس العلمية والفتاوى الشرعية للشيخ محمد ناصر الدين الألباني .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأما ما ذكر فى بعض الروايات :

«إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته»

فالراجح هنا أن يقال إن الضمير يعود إلى المضروب ، وقد قيل ذلك فى موضع آخر .

والله أعلم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن تبعه ونصره ووالاه . وبعد .

فهذه أهم النتائج التى توصلت إليها من خلال هذا البحث :

أولاً : سمو اللغة العربية وعلو شأنها وذلك لما اتسمت به قواعدها من القوة والعمق، ومن هذه القواعد : ما يتعلق بالضمير ، فينذر بل لا يكاد يوجد فى أي لغة مما يتعلق بالضمير مثل ما فى اللغة العربية .

ثانياً : معرفة مرجع الضمير والوقوف عليه يعين كثيرا على فهم المعنى المراد، وإذا كان المعنى والإعراب شيئان متلازمان، إلا أن المعنى مقدم على الإعراب، ولذا قال ابن هشام «وأول واجب على المعرب أن يفهم معنى ما يعر به مفرداً أو مركباً (١).

ثالثاً : تنوع مرجع الضمير يؤدي إلى معان متعددة يحتملها السياق، وهذا لون من ألوان البديع فى القول حيث يعمل الضمير الواحد في أكثر من اتجاه.

(١) وانظر المغني بحاشية الدسوقي ٢/ ٦٦٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رابعاً: قد يحتاج الأمر فى بعض المواضع لمعرفة مرجع الضمير أن ينظر فى النصوص المتشابهة .

وبعد ...

فهذا ما بذلته من جهد في هذا البحث والله أسأل أن أكون قد وفقت وحسبي أن هذا البحث وثيق الصلة بالكتاب والسنة والله من وراء القصد .

«ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير» .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المراجع والمصادر

١ - القرآن الكريم .

٢ - إتحاف فضلاء البشر للعلامة أحمد محمد البنا تحقيق د. شعبان محمد إسماعيل ما لم الكتب بيروت - نشر مكتبة الكليات الأزهرية / القاهرة / الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٣ - الإتقان في علوم القرآن للسيوطي تحقيق الأستاذ/ محمد أبو الفضل إبراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ م .

٤ - أحكام القرآن لابن العربي - تحقيق : على محمد البجاوي - دار الفكر .

٥ - أسباب النزول للشيخ أبي الحسن علي بن أحمد الواحد النيسابورى - عالم الكتب - بيروت .

٦ - أضواء البيان للشنقيطي - دار الفكر .

٧ - الأعلام لخير الدين الرزكلي - مطبعة دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

٨ - إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي - تحقيق الأستاذ/ محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢ م

٩ - البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي - مطبعة دار الفكر - المطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م .

١٠ - تذكرة الحفاظ للذهبي / دار إحياء التراث - بيروت .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١١ - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك - تحقيق : محمد كامل بركات - دار الكتاب العربي ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

١٢ - تفسير البغوي تحقيق خالد عبد الرحمن العك ، ومروان سوار - دار المعرفة - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

١٣ - تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور .

١٤ - تفسير الفخر الرازى .

١٥ - تفسير ابن كثير / مكتبة التراث الإسلامي / حلب سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م

١٦ - حاشية الجمل على الجلالين لسليمان بن عمر العجيلي الشافعي - مطبعة عيسى الحلبي بمصر .

١٧ - حاشية الدسوقي على مغني اللبيب للشيخ مصطفي عرفه الدسوقي - مطبعة المشهد الحسيني / القاهرة .

١٨ - حاشية الصبان على شرح الأشموني / مطبعة عيسى الحلبي .

١٩ - حجة القراءات لأبي زرعة - تحقيق د. سعيد الأفغانى / مطابع الشرق - بيروت الطبعة الأولى سنة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ هـ

٢٠ - الروض الأنف للسهيلي . تعليق د. طه عبد الرءوف سعد/ مكتبة الكليات الأزهرية .

٢١ - زاد المسير لابن الجوزي/ المكتب الإسلامى - بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٢ - السبعة لابن مجاهد تحقيق د/ شوقي ضيف / دار المعارف بمصر / الطبعة الثانية سنة ١٤٠٠ هـ .

٢٣ - السيرة النبوية لابن هشام تعليق د. عبد السلام تدمرى / دار الريان للتراث / الطبعة الأولى سنة ٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م .

٢٤ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد - دار الأوقاف الجديدة - بيروت .

٢٥ - شرح الأشموني / دار إحياء الكتب العربية / عيسى الحلبي .

٢٦ - صحيح مسلم بشرح النووي - دار إحياء التراث العربي .

٢٧ - ضياء المسالك إلى أوضح المسالك للأستاذ/ محمد عبد العزيز النجار / مطبعة السعادة بمصر/ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

٢٨ - طبقات القراء «غاية النهاية» لابن الجزري تحقيق برجستراس وبرتزل / القاهرة .

٢٩ - فتح الباري شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب وغيره/ الطبعة السلفية سنة ١٩٧٩م

٣٠ - الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي بن أبي طالب - تحقيق د/ محي الدين رمضان / مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة - الثالثة سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣١ - مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب . تحقيق د/ حاتم صالح الضامن مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

٣٢ - معاني القرآن تحقيق الأساتذة/ أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار وعبد الفتاح شلبي / دار الكتب المصرية - الطبعة الثانية .

٣٣ - النشر في القراءات العشر لابن الجوزي تحقيق علي محمد الضباع / دار الفكر بمصر .

٣٤ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner